

الفصل الأول

مـشـرـوع

كان ذلك في سنة ١٩٣٢ و كنا جماعة من الشبان نفكر في مناحي الخدمة الاجتماعية التي نستطيع أن نؤديها دون الاستعانة بالحكومة أو بالسلطات ودون دعاية طويلة عريضة يكون الغرض منها تكوين جمعيات او جماعات أو ما أشبه . وانما كنا نفرأ قليلا و كنا لا نستنكف أن نبقى كما نحن نفرأ قليلا ، ومع ذلك فقد كنا نشعر أننا من الطبقات المحظوظة في مصر لكل منا عمله الذي يقوم به على وجه مرض ويتناول في نظر تأديته أجراً لا بأس به يكفي الواحد منا ليعيش كما تعيش الطبقة المتوسطة ، نأكل فنشبع وننام فنستريح ونخرج من منازلنا فنروح عن أنفسنا لأننا نملك من المال ما يكفي لهذا الضرب من العيش وهذا النوع من الترويح عن النفس .

ثم كنا نفكر في بلدنا أيضاً ، تمرر نفوسنا للتقلبات السياسية في مصر ، فنتحدث في السياسة ثم نتقزز نفوسنا فنرجع العليل عندنا الاخلاق تارة وللفقير تارة وللجهل تارة وللحياة الاجتماعية من أولها إلى آخرها تارة أخرى ، كنا نشكو ونلوم ، نشكو السلطات ونلومها لأنها لا تفعل هذا أو ذلك ، نشكو الشعب ونلومه لأنه باق كما هو دون تغير أو تقدم ، ونحزن للفلاح ونحزن للعامل ونحزن لأطفال الشعب كيف ان هؤلاء جميعاً لا يجدون رعاية أو عناية تكفل لهم حياة محتملة فيها السكد والعمل المضمي ولكن فيها أيضاً بعض المتعة والترويح عن النفس . كانت هذه الخواطر تجول بأفئسنا ولكن لم نكن ندرى ماذا نفعل ، كنا نظن أن العمل من شأن غيرنا ، من شأن الحكومة والسلطات لأن للحكومة سلطة وسطاناً ومالا وفسيراً نستطيع

بهذه جميعاً أن تحدث أمر في هذا البلد ، وأما نحن فيكفينا أن نلج
نظراتنا إلى الحياة عندنا ونشكو من الشكوى من هذه الحياة في مجموعها
وفي تفصيلاتها .

ثم تذهبنا إلى أننا جزء من هذه الحياة الفاسدة ، وانها فاسدة لاننا نحن
لا نعمل على إصلاحها بما في وسعنا من جهد ، وان الحياة تصلح في مجموعها
إذا صلحت جزئياتها ، وان الفرد معها صفر شأنه يجب أن يعمل ما في وسعه ،
وأنه يستطيع أن يفعل الشيء الكثير ، وأن النظرة السطحية الصامتة إلى
الحياة لا تفيد ولا تجدي ، وأن ما يفيد ويجدي في الواقع هو النظر إلى
التفاصيل والعمل على تقويم هذه التفاصيل ، وان هذه أمور لا تستلزم
حكومة أو سلطاناً أو مالاً ، وانما تستلزم جهوداً متواضعة يقوم بها
الأفراد ، ثم السنا نحن أفراداً ، أليس من واجبنا ان نعمل ما نستطيع في
سبيل الإصلاح ، أليس من العار علينا أن نقعد منتظرين مجيء الإصلاح على
أيد غير أيدينا وبعمل أناس غيرنا ، ثم ماذا يستطيعه الغير ونعجز عنه نحن ،
ماذا يستطيع الفرد العادي المثقف ان يفعل ، ثم ماذا يمنحنا ان نفعل مثاماً يفعل
ونبذل من الجهد والمال مثاماً يبذل .

تذهبنا اذن إلى أن هذا البلد لا يحتاج إلى أناس يكون وينوحون على فساد
الحياة عندنا من الوجهة السياسية والاقتصادية والصحية والاخلاقية ، وأن
البكاء والنواح لا يهودان على أحسد بفائدة ، لا بل ان دلا على شيء فانهما
يدلان على عدم فهم الشاكي للحقائق أولاً ، ثم هو محاولة منه للتدخل من
مسئوليات لا يجوز له عقلياً أو أخلاقياً أن يتدخل منها ثانياً .

طستقر رأينا على أن نعمل ، فاجتمعنا وكونا جماعة لدراسة بعض
النواحي الاجتماعية القريبة منا والتي يمكن لمجهوداتنا الضئيلة أن تؤثر فيها ،
وبعد البحث والاستقراء وضعنا المبادئ الآتية لعملائنا :

١ — يجب أن يكون عملنا متواضعاً تكفي مجهوداتنا الشخصية للقيام
به دون الاستعانة بأحد بحيث نستطيع ان نستمر فيه إذا تبين لنا نفعه .

٢ — يجب ان يكون عامل الاختبار والتجربة فيه متوافراً بحيث نستطيع أن نغير الاتجاه لمجهوداتنا متى تبين لنا بالاختبار والتجربة أن التغيير أجدى على العمل الذي نقوم به .

٣ — يجب ان يكون عملنا موقوتاً بحيث لا نضطر إلى التوقف فيه اضطراباً وانما نقف عند حدهميين إذا تعذر علينا الاستمرار فيه لضرورات مادية او مهنوية ، وبمعنى آخر قررنا ان نعمل مدة محددة من الزمن ثم نراجع أنفسنا فيما عملنا هل نستطيع ان نبذل نفس المجهود أو بمجهود أقل منه أو أكثر ، وهل نستمر في نفس العمل مدة مساوية للمدة السابقة أو أقصر أو أطول ، وهل العمل الذي نعمله هو الواجب أن يعمل أم مجردنا أن نجرب أمراً آخر .

٤ — مجال الخدمة في البلد واسع الأرجاء ولا يمكن أن يضيق بعمل من الأعمال النافعة فإذا نختار منها ولماذا نختار ما نختار بالذات ، لأنه مفيد للبلد حقاً ، أم لأنه يطابق هوى في نفوسنا فيشبع فيها غرائز مهينة تتطلب الارضاء ، وبعبارة أخرى هل نقبل على عمل معين لأن هذا العمل له نتائج نامسها فترضيها وتربح نفوسنا القلقة ، أم نعمل شيئاً يرضى العقل بغض النظر عن الانفعالات النفسية فيها .

فإطعام الجائع يشبع شهوتين ، شهوة الجساع إلى الطعام وشهوة المعطى إلى الشعور بأنه يرضى في نفسه غريزة فعل الخير ، الجائع يشبع بطنه ، والمحسن يشبع عاطفته ، الجائع يشكر المحسن والمحسن يشكر نفسه ، أحدهما مدين والثاني دائن ، له في عنق هذا فضل أخذ أجره شعوراً نفسياً بالرضى عن النفس وفي نفس الوقت ينكر هذا الأجر ولا يعترف له بوجوده لا بل يحتسب له أجراً عند الله حيث تنصب الموازين ويرد المعروف لأهله .

ونحن لانريد هذا فلا نبغى من عملنا أجراً نفسياً أو مادياً ، ثم لانريد أن نحاسب عما نعمل في يوم الدين وانما يجب ان يكون لنا مأرب آخر غير

هذا وذاك ، وهو ان نعمل شيئاً من شأنه ان ينفع الناس بعد عشرات من السنين ، فلا نطمع ان نرى بأعيننا الخير الذي نعمل وانما نعمله لأنه هو دون غيره ما يجب ان نعمل ، إذ ان البلد في حاجة شديدة اليه و كان يجب ان نعمل من سنين مضت حتى تظهر آثاره في حياتنا الآن ، أما وإنه لم يعمل إلى الآن فان النقص في حياتنا مأموس من جميع النواحي ، وحتى لا يبقى هذا النقص قائماً بعد عشرات السنين فيجمل بنا ان نبدأ الآن وان نبدأ في تواضع فنعمل جزءاً بسيطاً مما يجب ان نعمل ، وقد يتنبه الناس إلى أهمية ما نعمل وقد لا يتنبهون ، فإذا كانت الأولى اقبلوا على سلوك نفس السبيل إلى الإصلاح ، وإذا كانت الثانية فقد قمنا نحن بما يجب علينا وبما تسعه جهودنا وكفى ، وسوف يبقى ما عملنا للبلد وسوف يحول سير الأمور فيها ، فتتحرف انحرافاً ضئيلاً جداً لناحية الإصلاح الحقيقي النافع ، ثم نموت نحن وننتهي مجهوداتنا الشخصية .

ولما أن وصلنا في تفكيرنا إلى هذا الحد بعد أن وضعنا هذه المبادئ العامة وهي أننا نعمل بأنفسنا دون ان يعتمدنا على الغير أو يشل أيدينا ، ونعمل في حدود طاقتنا لا أكثر ولا أقل ، ونعمل لمدة من الزمن محدودة معينة بحيث عند انتهائها نكون قد قمنا بما آلينا على أنفسنا أن نقوم به ، فلا نشعر أننا ملزمون بالاستمرار خوفاً على سمعتنا أو تحت تأثير أدبي أو مادي أو خوفاً من ضحك الناس منا ، ثم نعمل فقط للنفع الذي يعود من عملنا على الغير بحيث لا نهتم سواء أكننا نرى بأعيننا آثار العمل الذي عملناه أم لا نرى هذه الآثار ، بعد أن اتفقنا على هذه القواعد وقبلناها دستوراً لأنفسنا نظرنا إلى وسائل الإصلاح في ذاتها .

قلنا وسائل الإصلاح ولم نقل أغراضها لأن هذه الأخيرة ليست مجالاً لخلاف كبير أو قليل في مجموعها ، إذ يكاد يجمع الناس على هذه الأغراض وتكاد كلها تنحصر في تقويم الأخلاق وتوفير أسباب العيش المادية أي تحسين الغذاء والصحة وتدريب العلاج والماء النقي والمبزل الصحي وتعليم

مبادئ القراءة والحساب . هذه في مجموعها أغراض الإصلاح مع تغيير طفيف في الاتجاه ومع التفاوت في تقدير أهمية هذه العناصر التي يتكون منها الإصلاح ولكن الجميع متفقون على أن الإصلاح يتناول هذه جميعاً لأن الشعب في شديد الحاجة إليها جميعاً .

أما الأمر في الوسائل فعلى النقيض من هذا ، فهي علة العطل في عجزنا عن الإصلاح وفي التضارب والتشويش الذي يسود الأفكار ، ففي البلد من وسائل الإصلاح بقدر ما فيها من أفراد معنيين بالإصلاح ، فيها من يظن أن الإصلاح يقوم على محاربة العادات السيئة في الجنازات ، مثلاً يجب أن يحمل الميت بطريقة معينة ويسير به المشيخون بطريقة معينة وأن المشيخين يجب أن لا يصرخوا أو يرتلوا أو يرددوا الدعاء بأصوات عالية ويجب أن لا تسير النساء في الجنازات بشكل يسيء إلى سمعة البلد أو يهينه الذوق ، والسبيل إلى القضاء على هذه العادات المموجة أن تصدر القوانين التي تحدمن هذه التصرفات القبيحة في نظرهم ثم على رجال البوليس أن ينفذوا هذه القوانين بالدقة وبالشدّة اللازمة فنستريح وينتهي الاشكال .

وهذا الضرب من الإصلاح به جميع العموم التي نريد أن نتحلل منها وتريد جماعاتنا أن تتجنبها ، فهو أولاً نوع من الشكوى والتذمر التي لا تنفي ولا تفيد فالشاكى لا يريد أن يعمل شيئاً بنفسه وإنما يريد أن يشكو ثم يترك العمل لغيره ، لمشرع القوانين بالبرلمان ولوزارة ثم لقوة البوليس وما عليه هو سوى أن يشير بأطراف أصابعه إلى العطل فيبادر غيره إلى العمل والإصلاح وبعد فليس هذا بالإصلاح الصحيح ، الإصلاح الذي يبقى للبلد ويدوم ويغير في الأجيال القادمة بحيث تصبح أنفع للحياة وأقدر عليها ، ثم أن هذا أمر زواله يريح الشاكى ويبت في نفسه الراحة والسرور أكثر مما ينفع الناس المراد إصلاحهم وبعد فأرغام الناس بالقانون على إتيان شيء معين ليس معناه أننا غيرنا ما بنقوسهم .

هذا مثل بسيط من وسائل الإصلاح أوردناه للتدليل وقد لا يكون من خيرة الأمثلة أو من أولها على ما نرعى إليه ولكننا نستطيع أن نورد غيره كثير فهناك من يظن أن خير وسيلة لإصلاح البلد أن تبني الحكومة منازل صحية للفلاحين أو للعمال أو تعمل على توفير المياه الصالحة لهم أو تدبر الأجور الكافية وهي أمور ضرورية لا شك من ذلك وإنما هي مشروعات خيالية لا تستند إلى حقائق الحياة المصرية ولا يمكن تحقيقها عن طريق عمل تقوم به هيئة أو حكومة بعيدة عن مساهمة المنتفعين بهم مساهمة مبنية على الرغبة والدراسة وعلى الشعور العميق بلزومها عند أولئك الذين يفيدون منها وبعبارة أخرى لا يمكن لحكومة أن تبني للفلاح بيتاً لا يرى هو ضرورة له ولا يرى فائدة كل ركن من أركانه وكل قدم من مرافقه ويؤمن بها إيماناً عميقاً ويعرف على التحقيق كيفية استعمال جميع مرافقه على الوجه الصحيح لا يمكن أن يسمح لمساشيته أن تفارقه سواد الليل فتنام في مكان بعيد عن مكانه إلا إذا كان يرغب في هذه رغبة عميقة بعيدة النور في نفسه ويطلب الأمر لنفسه بكل وسائل الطلب .

وبالإختصار وجدنا أن الإصلاح عندنا يتردد بين سبيلين لا ثالث لهما وإن الداعين إليه ينقسمون إلى فريقين فريق يهمه الأثر المعجل الذي يتركه عمله في نفس الجمهور دون الغرض النهائي من هذا العمل هذا يريد أن يرى الناس ويرى هو معهم أثر عمله في الحياة ، يريد أن يقول للناس هاكم ما عملت وهاكم أنا حي أرزق بسين ظهر انيكم فاشكروني على عملي واربتوا لي على ظهري وهذا هو الغالب بالأسف فكل ذي سلطان عندنا يريد أن يرى بنفسه أثر ما عمل يريد أن يبني القرى ويخفف البرك ويفتح الطرق ويبني المستشفيات ويفتح المدارس وينشئ الوحدات الصحية ويفتح خزائن الدولة للفقراء يطعمهم ويجمع لهم من الشعب ما يطعمون به ويقدم لهم اللحمة في الأعياد والكساء في الشتاء ويهبطهم العدس والأرز والصابون وهذه كلها

اشياء يستطيع أى انسان أن يصنع مثلها وهي بعض اشياء تترك أثرها مختلفا في نفوس الناس وتجعلهم يتحدثون بها والحديث فيها مستحب للوزير أو الكبير .
والفريق الثاني وهو النادر لسوء الحظ هم أولئك الذين ينظرون الى بعيد ، ينظرون الى حالة مصر بعد عشرين أو ثلاثين أو خمسين سنة ، ما هي عليه الآن وما يجب أن تكون عليه حينذاك وماذا يلزمها حتى تصبح على الصورة التي يتخيلها بعد مرور هذا الزمن ، أو بعبارة أخرى يهتمون للأغراض البعيدة من الاصلاح ويغفلون الأثر الوقتي الذي تحدثه أفعالهم في نفوس الناس وفي الرأي العام . ينظرون الى المشروع في جوهره هل هو لازم ، هل هو يؤدي الى غاية الغايات وهي نفع الشعب المصري في مجموعه أو نفع القالبية منه ، إذا كان الأمر كذلك فلا يهم اذن ما يحدث لهم في الحال .

هذا من جهة عقلية القائمين بالاصلاح أما من جهة سبيل الاصلاح فله شعبتان ، شعبة تنحرف لطريق مادي صرف أساسه اقتصادي بحت ، والذين يدعون الى سلوك هذا السبيل يؤمنون أن أساس الحياة في مجموعها ، الحياة من الوجهة المادية والمعنوية ، الصحة وسلامة البدن ولذة العيش والأموال الاخلاقية والاجتماعية والروحية والمثل العليا كلها تنبني أولا و آخرأ على الجنيه والملم ، فأطفال الشعب يسرقون ويخطفون لأنهم جنياع والفساح يضيق بالحياة ويفلت منه زمام نفسه فيقتل لخلاف بسيط قد لا يتهدى بالخلاف أن يكون على بصلة والشعب لا ينشط كأمة متحدة لها أغراض معينة تسير اليها في كتلة واحدة لأنه فقير مريض عريان لأنه يشرب ماء قدرا ويسكن في مساكن وضيقة ، فسبيل الاصلاح عند هذه الطائفة هو سبيل اقتصادي مادي لا غير ، متى اصلحنا الأساس الاقتصادية في مصر فقد اصلحنا الحياة الأدبية والقومية والروحية .

والداعون الى سلوك السبيل الثاني قوم يؤمنون بالقيم الانسانية يؤمنون بأن الانسان كائن يستطيع أن يتحكم في بيئته ويغيرها بنفسه حتى تصبح

ملائمة لحياته ، وأنه في ذاته قوة يمتز بها يمكن توجيهها الى حيث تفضط وتنتج وتغير معالم الحياة والعيش حولها بحيث تصبح على الوضع الذي يراد لها ، فهم يزعمون بأنك تستطيع أن تغير الحياة المادية وتحسن الصحة العامة وتقضي على الأمراض وتزيد الانتاج الاقتصادي وتبني الدور الصالحة للسكنى متى غيرت من نفسية الشعب ومن مثله العليا ، ومتى أصبح الشعب عارفاً لما يريد والسبيل الى ما يريد ، فأول ما يصنع المصلحون هو أن يعرفوا الشعب ما يريد ثم يدلونه على السبيل الى تحقيق هذه الارادة فيعمل هو لنفسه ما يريد الفريق الآخر أن يصنعه له ، فكثير من الأمراض مثلاً يمكن القضاء عليها متى عرف الفلاح أمكنة المرض ووسيلة اتقائه وطريقة مقاومته ومتى أحب النظافة وأقبل عليها من تلقاء نفسه ومتى ضاقت نفسه بالقدارة في ثيابه وبدنه ومتى كانت وسائل النظافة سهلة بسيطة عليه لانكفاه جهداً كبيراً أو مالا قليلاً أو كثيراً ومتى شعر أن نظافة بدنه عنده مقدسة كالوضوء والصلاة سواء بسواء وضرورية كالأكل والغذاء ، متى كان الفلاح في مثل هذه الحالة النفسية لا يحتاج المصلحون الى بناء المستشفيات وتوفير مياه الشرب وزيادة دخل الفلاح للقضاء على هذا المرض بالذات .

فطائفة منهما تقول انك تستطيع أن تشتري نوع الحياة التي تريدها للشعب بالجنيه والطائفة الأخرى تقول أن المعدن الانساني في الشعب هو الذي ينتج له ما يريد من الجنيهات متى كانت نفسية الأفراد مستقيمة قوية بهيدة عن العلل المعنوية تحمل المسائل المادية من تلقاء نفسها . الطائفة الأولى تزعم أن الحياة متوقفة على المادة والثانية تزعم أنها متوقفة على الناس ، الأولى تقول أن مشكلة مصر في الانتاج وتوزيع هذا الانتاج والطائفة الثانية تقول أن مشكلة مصر في أفراد الشعب في ميولهم وأفكارهم وعاداتهم ومثلهم العليا الأولى تدعو الى التفسير الاقتصادي للتاريخ والأخرى تدعو الى التفسير الروحي للتاريخ .

وبرنامج الاصلاح يجب أن يسلك السبيلين معاً يجب أن تستنبط

الخطوط لتقويم نفوس أفراد الشعب وتحسين وسائل معايشهم وفي نفس الوقت يجب أن تدرس المسألة بجميع تفاصيلها فتتعاون جميع الهيئات وأصحاب جميع المذاهب الاجتماعية والأخلاقية والدينية في وضع خطة عامة مشتركة مفصلة ومرهونة بأوقاتها ويشرع في تنفيذها على عدد معين من السنين ثم تشرع كل جماعة وكل هيئة في تأدية ما يجب عليها في حدود البرنامج العام وبرنامج كهذا لا يمكن أن تضطلع به هيئة واحدة سواء أكانت حكومية أم أهلية لأن وضعه يستغرق مدة طويلة وجهوداً كبيرة ويظن أنه قد يستغرق السنين ويستلزم عملاً متواصلاً من الإخصائيين وقد يوضع في بعض مجلدات ضخمة .

ويظن أن برنامجاً كهذا يجب أن يبدأ بأعداد الشعب للإصلاح بحيث يفهم ما يراد له وما يراد منه لتحقيق الخبر له وقد كانت هذه النقطة ولا تزال مشاراً لخلاف كبير بين الطبقات العالية أي المثريين والمثقفين وأصحاب المهن ذلك لأن الداعين إليها يستعملون ألفاظاً مهمة تؤدي إلى مظان يأبأها هؤلاء ويظنون أن فيها شراً كثيراً لا قبل للأمة بدفعه إذا انبث في نفوس الناس . يدعو هؤلاء بطريقة مهمة إلى التعليم فهم يقولون أن الشعب جاهل وأن الجهل أساس جميع الشرور والسبيل إلى القضاء على هذه الحالة إنما هو في التعليم فهلينا بالمدارس نبشأ في جميع أنحاء البلاد من أقصاها إلى أقصاها تعلم أبناء الشعب وتهذيبهم وتفتح أذهانهم فيصبحوا عارفين مستعيرين إلى آخر هذا الكلام فيترعج هؤلاء ويضطربون خشية التغير السطحي في حياة أبناء الفلاحين فقد يلبسون الطربوش ويرمون بحياة الريف ويستنكفون أن يعملوا مع أهلهم وذويهم في أفلاح الحقول ورعاية الماشية ويظنون أنهم أصبحوا من طينة غير طينة الفلاح ثم ينزحون إلى المدن فيوجدون إشكالا اجتماعياً لا قبل للبلد بحله وتشرف الحياة الاجتماعية في مصر على الانهيار للمبادئ الاقتصادية المتطرفة التي قد يعتنقها هؤلاء وما نتج كل هذا إلا من استعمال ألفاظ مبهمه ومعان فضفاضة قد تفسر على وجوه كثيرة .

والواقع أن الاشكال قائم على المظاهر دون الجوهر والحقائق. فسلامة نظن أن الداعين إلى التعليم يقصدون التعليم كما نراه في القاهرة وكما تقوم به وزارة المعارف من تغير في المظهر وحشو الأدمغة بالقشور التي لا تفنى ولا تجدي وإنما نظن أنهم يقصدون بالتربية تربية أبناء الشعب وتغير عقلياتهم وميولهم ونظراتهم للحياة والعمل والصحة ونظافة البدن بحيث يصبحون أصحاء للحياة القروية منهم الآن وأقدر على الانتاج في الحقل وفي رعاية الماشية وفي الحياة البيئية المنزلية منهم الآن .

يقصدون من تربيتهم أن يجعلوه قادراً على أن يستغل بقرته مثلاً خير آ مما يستغلها الآن ، كيف يطعمها ويسقيها ويعتني بها ويهد لها المكان الملائم الذي يتفق وأحسن وجوه الاستغلال ، وفيما يصرف نقوده عليها ماذا يطعمها ويفصل الطعام ونوع الطعام اللازم للحيوان الذي يستغل في الجرن والرى والنوع الذي يصاح للحيوان اللبون ومقدار اللبن والجبن والزبد التي تنتج من أنواع الطعام ، وكيف يربي الماشية للحمها وماذا يلزم لهذا النوع من الماشية من أكل وراحة وما هو الطعام الذي ينتج الدهن والذي ينتج اللحم الأجر وهكذا من هذه الأمور وأمثالها كثير لا حصر له ، وبعبارة أخرى يقصدون من التعليم مجموع المعارف اللازمة للفرد في بيئة معينة بذاتها والبيئة في حالتها الراهنة إنما هي البيئة القروية في الريف المصري وسط المزارع والحقول المصرية — هذا هو التعليم في معناه عند هؤلاء .

أما التربية فهي تنصرف إلى النفس وإلى الميول والمزاج والتصرفات بين الناس والعلاقات الاجتماعية كلها والأخلاق، فالتربية إذن ليست دعابة لنوع معين من النظم الاقتصادية أو السياسية سواء أكانت هذه النظم متطرفة أو محافظة ليست هي بث الدعابة البلشفية أو النازية أو النزعات الاستبدادية والواقع أنه لا خطر على الاطلاق من تربية الشعب وأبناء الشعب لأنها وسيلة لغرض يضعه أصحاب الشأن وأرباب البلد، وما على المرءين إلا أن يستنبطوا الوسائل لمبوغ هذه الغاية ومن المستطاع تحديد الغاية ومن الممكن أن يساهم

في وضع هذه الغاية من يخشى هذه النظريات المتطرفة ويحذروا بالاضبط
الأغراض السياسية والنظم الاجتماعية التي تتفق ومزاجهم ثم يأخذ المربون
هذه الأغراض وينفذونها كما هي بحيث يصلون إليها في مدة معينة من الزمن .

ولا يمكن أن نكون الثورات والانقلابات الاجتماعية الخطيرة من عناصر
الإصلاح ، فالإصلاح من شأنه أن يؤدي إلى التوازن والاستقرار والطمأنينة
على الحياة والمال ، والمتاع يربي إلى إسعاد الناس وتوفير أسباب العيش لهم حتى
يرتضوا الحالة التي يقيمون فيها وحتى يعملوا مختارين على دوامها واستمرارها
مع تغيرات طفيفة تطرأ على الحياة من حين إلى حين تبعاً للتطورات العلمية
هبطاً من أن يستعمل الفلاح حماره مثلاً في الانتقال من بلده إلى البندر
يستعمل السيارات العمومية وبدلاً من أن يستمع لهجائز البلد يتحدثون
بالأخبار ، ينصت الحديث من القاهرة يذاع بالراديو وهذه التغيرات لا بد
وأن تحدث بتقدم الزمن وهي تغيرات لا ثورة فيها ولا انقلابات اجتماعية
أو سياسية أو دينية ، أما التعليم والتربية التي تقسم المصريين إلى طوائف
وجماعات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية تشعر كل منها بأن مصالحها
تتعارض مع مصالح باقي الطوائف والجماعات فهي من أخطر الوسائل في
الإصلاح بل لا تمت لهذه الغاية بصلة ما .

مرت كل هذه الحواطر برؤوسنا ونحن ندرس وسائل الإصلاح وما
تستطيعه جماعتنا الضعيفة القليلة أن تصنعه في هذا السبيل . قبلت الجماعة اذن
هذه المبادئ ، كدستور لها تسير بمقتضاه وتندشط في ضوئه وتهتدى بهديه
وآل أفرادها على أنفسهم أن يؤديوا ما يطلب اليهم عمله في حدود هذه
القواعد العامة .

ثم قررنا أن نبدأ عملنا بين أبناء الشعب الصبيان ما بين العاشرة والخامسة
عشر ، أما لماذا اخترنا هذه الطائفة بالذات دون جميع الطوائف وهذا النوع
من الخدمة دون سواه فأمر سوف يتبينه القاري . من سياق الكلام في هذا

الكتاب والواقع أن هذا الكتاب يدور من أوله إلى آخره على هذه النقطة لماذا تبدأ الإصلاح بالأطفال دون سواهم ولماذا هذا البرنامج يقدم هؤلاء الأطفال وليس برنامج آخر ، لماذا لا نطعمهم أو نكسوهم أو نعلمهم القراءة والكتابة ونكفي أنفسنا مؤنة برنامج قد لا يفهمه الجمهور وقد يظن أن لا فائدة منه ربحي لا بل قد يظن أنه نوع من الهوس الذي تملك القامعين به فقاموا به دون اعتبار لشيء آخر كما يخطر للمعتوه أن يأتي عملاً معيناً فينتقله لأنه لا يملك من نفسه إلا أن يفعله .

ولكن ولسنا معتوهين أو مخبولين وإنما نظن أننا نسلك السبيل الوحيد الممكن للإصلاح والذي يجب أن تبدأ من عنده جهود المصلحين جميعاً وهذا أيضاً سوف يتضح للقاريء الذي يتتبع فصول هذا الكتاب ونظن أنه سوف ينتهي به الأمر إلى قبول وجهة نظرنا وإلى الاعتقاد بسلامتها من الوجهتين النظرية والعملية فلنترك إذن الأسباب التي حدثت بنا إلى خدمة هذه الطائفة دون سواها وإلى إتباع هذا المنهج في الخدمة دون سواها نترك هذا حتى يجيء مكانه من هذا الكتاب .

نترك هذا ونعود إلى قصة الجماعة حيث وقفنا عندها .

قررنا إذن أن نتصل ببناء الشعب الصبيان الذين يملاؤن الشوارع والطرقات لا هم لهم إلا الفوضى يذبحونها بين الناس والقانون يعيشون به في كل لفنة من لفناتهم وكل حركة من حر كاتهم فيعطلون سير الحياة الطبيعي ويصيحون حملاً ثقيلاً على الناس في غدواتهم وروحاتهم ويخلقون جواً من الحياة الاجتماعية يحيط بالمدن الكبيرة يكاد لا يحتمل لا بل يكاد يودي بالحياة الاجتماعية المصرية من أساسها فبين ظهر انهم تذبذبت الأمراض والجراثيم وهم الحقل الخصب للأمراض والجراثيم تزرع فيهم فتذبذبت وتزدهر وتفسد الحياة المصرية .

قررنا أن تعالج هذه الحالة في موضع أو موضعين لنرى هل من الممكن أن

يقضى على هذا الداء وهل يصلح ما نعمل اساساً لعمل قومي كبير يصبح أن يصبح
 منهاجاً للإصلاح في البلد وعلى كل حال اتجه تفكيرنا إلى هذه الناحية بغرض
 الدرس إن لم يكن بغرض الإصلاح. فاعتزنا أن نوالى بعض هؤلاء الصبية
 بالاتصال الشخصي بيننا وبينهم فنبث فيهم نوعاً من المعايير الاجتماعية غير ذلك
 النوع الذي يحتضنونه ، نوعاً يخلق بينهم وبين بيئتهم روابط وأوشاج
 غير تلك القائمة فعلاً بينهم وتنظم العلاقات بينهم كأفراد بحيث تصبح على
 أساس غير الأساس الذي تقوم عليه الآن وتعطى لهم فكرة عن واجب الفرد
 نحو جسمه وعقله ومظهره ثم نحو حكومته وبلده والنظم القائمة والقانون
 الذي ينظم العلاقات بين الناس ورجل البوليس الذي يسهر على تنفيذ القانون .
 وقد يسيء تنفيذها وعن الملكية والمنافع العامة إلى آخر هذه الأمور التي هي
 الغايات للحياة الاجتماعية ونسبها وبعبارة أخرى نريد أن نقلب هذا الصبي
 الخارج على القانون إلى إنسان متمدين وطني يصلح لأن يكون حجراً في
 بناء قومي ثابت متين .

وكان أحدنا قد دعى إلى عشاء يقيمه بعض الناس مرة في السنة بالقاهرة
 يتناولون فيه عشاء من العدس والخبز فقط يدفع كل فرد في نظيره ثمناً لا
 بأس به ولكنه يزيد أضعافاً مضاعفة عن التكاليف ثم يسمونه عشاء «الضيف
 الغائب» وكان من عادة المحتفلين أن يقيموا في مكان آخر في نفس الوقت
 حفلة عشاء نخمة لبعض أطفال الشعب يصرفون عليها مما يتوافر لهم من
 عشاء العدس فأعجب هذا الإنسان بهذه الفكرة فنقلها لجماعته مع تعبير بسيط
 في التسمية وفي الغرض

واتفقت الجماعة على تسميتها «عشاء الأخ الصغير» قوامه العدس والخبز
 والماء يجتمع إلى هذه المائدة عدد كبير من أصدقاء الجماعة يتناولون هذا العشاء
 ثم يستمعون إلى كلمات تلي عليهم عن الغرض من ذلك الحفل وأذكر أن
 أول من تكلم في هذا الحشد هو الدكتور طه حسين .

واجتمع لنا مبلغ بين الأربعين والخمسين جنيتها على ما أذكر فابتعنا بعض أدوات اللعب ثم ذهبنا إلى حي باب الشهيرة حيث يكثر الأطفال ووضعنا اليد على أرض فضاء وأخذنا نمارس ألعابنا ونسمع الأطفال أن يساهموا معنا فيها وقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لوضع أسس الاتصال الشخصي بيننا وبينهم. ذهبنا لنلعب معهم فلعبوا معنا وإن كانوا في شك من أغراضنا الخفية والمستترة التي نسعي إلى تحقيقها عن طريق اللعب ونحن نعلم أن أساس التظن والشكوك هو في عدم معرفة الأفراد معرفة عميقة تشمل كثيراً من النواحي الشخصية حتى لتكاد تشرف على الصداقة وإذن فليكن غرضنا الأول المبدئي التعارف والتعرف على هؤلاء الصبيان ومعرفة لنا معرفة أساسها طول زمن الاتصال بيننا ، وكان همتنا الأول تقديم أنفسنا لهم بحيث يطمئنونا أننا وهذا بالطبع يستغرق زمناً طويلاً ولا يحسن التعجل أو الاندفاع .

وبالطبع أخذ الأطفال يتكهنون عن شخصياتنا ونياتنا وأغراضنا وهذا طبيعي جداً ومعقول جداً ومعقول أيضاً أن نتقبل كل التهم التي تكال لنا بصدر رحب وندفعها في لين وهو أده وإن عجزنا عن دفعها فلنتركها للزمن يقتضي عليها متى عرفنا هؤلاء الصبيان حق معرفتنا ، فغرضنا الأول إذن هو أن نعمل بكل الطرق الممكنة على تعريفهم بنا ولتكن هذه العملية بطيئة طبيعية لا تصنع فيها ولا تعجل عالمين أن الأمور مرهونة بأوقاتها .

فأول ما قابلونا به كان الطوب والحجارة يرمونها بها والشتائم تنهال علينا وعلى أمهاتنا وأبائنا وكانوا يفهمون اللعب معنا على أنه فوضى وتنازع بين كل فرد فيهم والفرد الآخر وبينهم وبيننا لا يركون الكرة بأقدامهم فيرسلونها من فرد إلى فرد وإنما يخطفونها ويجرون بها إلى حيث ينفرد الواحد منهم بها ليلاعب كما يحلو له وإذا لم تمرر الكرة للواحد منهم عندما يطلبها يعتبر هذا العمل منا اهانة شخصية له وتحدياً واضحاً صريحاً ودليلاً على نياتنا السيئة نحو شخصيته وإنما نقصده بالذات ولا نريده أن يساهم معنا

في العايناء ، وبالاختصار يغضب كل فرد منهم إذا ترددنا في توجيه كل واحدنا
لتسليته هو دون سواه .

أما العلاقات بينهم فقد كانت من النوع الذي لا يصلح مطلقاً لحياة الناس
فليس للضعيف بينهم حقوق وليس على القوى واجبات أساسها الفرد منهم
ما يستطيع وما لا يستطيع ما يحب وما لا يحب فإذا كان قوياً لا يعتبر الآخرين
ولا يحس لهم وجوداً إلا في حالة ، يرى أنه مستطيع أن يستغلهم لأغراضه
الشخصية لا يمكن للصغير فيهم أن يتصرف الا طبقاً لموى الكبير فإذا طلب
اليه أن يكف عن اللعب كلف دون تردد ، وإذا لم يفعله فقد يستجلب غضب
الكبير والحال أنه معنى بدفع هذا الغضب بأى ثمن وبالاختصار كانت
العلاقات بينهم فيمجة ممجوجة ضارة لا يمكن أن تصلح أساساً لحين ترجو
الأمة منه الخير والنفع ولا يمكن أن ينتج جماعة منظمة ترعى فيها الحقوق
وتؤدى فيها الواجبات .

وبما انهم لم يحسوا في حياتهم خيراً من أحد بل نشأوا على الشعور بأن
الدنيا من أولها لا آخرها تنامر عليهم أفراداً يتلقفهم كل فرد من البالغين
بالضرب والركل بسبب وبلا سبب يتعقبهم رجال البوليس لفسير سبب
مفهوم لديهم أو لأنهم خطفوا من أحد المارة نفوداً أو شيئاً يباع في السوق
ليمتنعوا بشئهم أو لأنهم سرقوا شيئاً يأكلونه والخطف والسرقة في نظرهم شيء
لا غبار عليه مادام في استطاعة الواحد منهم أن يفلت من نتائج عمله ، ومهما
كان الشأن معهم فهم لا يجدون خيراً من الناس ويشعرون أن الناس لا يرجو
خيراً منهم ولهذا نشأت بينهم وبين بيئتهم حالة من الريب والشكوك
وانعدمت الصلاة الاجتماعية فيهم فلا يحسون هذا العطف الذي تحسه الأطفال
في البلاد الأخرى من مجموع الشعب فإذا ما اقتربت من أحدهم لتسأله سؤالاً
بسيطاً أخذ حذره منك واستعد للبكاء أو الهرب ان استطاع الهرب .

استقبلونا في باب الشهرية بهذا الجو النفساني الذي يعيشون فيه وعلى

فهو هذه الحالة اخذوا يتكهنون بفرضنا الخفي من نجشهم المشاق والانتقال
من أما كنا الى مكانهم للعب معهم فقال بعضهم اننا كنا مبشرين . حقاً اننا
كنا خليطاً من المسلمين والمسيحيين ولكن هذا لا يهم في نظرهم فهم مهنيون
بالكشف عن اغراضنا الخفية وفي حالة ما لم يكن لنا غرض مقبول فالتبشير
اولى عندهم من غيره .

وقال بعضهم اننا رسل البوليس حضرنا الى هذا الحى لتبين مكانهم
وتعرف اسماءهم وأمكانة سكنهم ومتى استوثقنا من ههنا الشئون فسوف
نهبجهم على حيمهم بقوة كبيرة من البوليس ونقبض عليهم ونضعهم في سيارات
مقنلة تنقلهم الى حيث لا يعلمون ولا يعلم اهلهم وعلى هذا كانوا يحرضون
بعضهم باتخاذ الحذر منا فلا يطمئنون لنا كل الاطمئنان .

وقال آخرون اننا رسل المدارس الالزامية حضرنا الى حيمهم لتعرف من
لا يذهب الى المدارس منهم فزغم أهلهم على ارسالهم الى المدارس وهم بالطبع
لا يحبون المدارس ولا يرغبون في التعليم فكانوا دائماً على حذر منا حتى اذا
هدرت من احدنا بادرة ولوا هاربين لينجوا مما ندر لهم .

خطرت ببالهم جميع هذه الخواطر وغيرها كثير أما الغرض الحقيقي
الذي في سبيله احتملنا ما احتملناه منهم ومن اهليهم فلم يخطر لهم ببال
وكيف يخطر لهم أن انساناً نظيفاً في صحة جيدة تبين عليه آثار النعمة
وبسطة العيش يخطر بباله أن يذهب كل يوم الى هذا الحى ليلعب في التراب
والغفار ويسمع ما يكره ويعامل بغلظة دون أن ينتقم لنفسه منهم ودون أن
يرد هذه الغلظة بمثل ما يرد الناس عادة ، هذه حالة لا يركن اليها لانها غير
مفهومة عندهم على الاطلاق .